

# الباب الثالث والعشرون

## بلاد اليونان الرومانية

### الفصل الأول

#### أفلو طرخس

بذلت رومة جهدها لكي تكون كريمة في معاملتها لبلاد اليونان ، ولم تخفق في هذا الإخفاق كله ؛ فهي لم تضع حاميات من الجند في ولاية أخية الجديدة ، وكان ما فرضته عليها من الخراج أقل مما كان ينتزعه بجباتها من أهلها قبل مجيء الرومان إليها ؛ وتركت رومة دول المدن تحكم نفسها حسب دساتيرها وقوانينها القديمة ، وجعلت الكثير منها : كأثينة ، واسبارطة ، وبلاتية ، ودلفي وغيرها « مدنًا حرة » ، تتمتع بحقوقها القديمة كلها عدا حقها في أن تشن الحرب الخارجية أو حرب الطبقات .

لكن بلاد اليونان كانت تتحروى شوقاً إلى حريتها ، كما أن القواد الرومان ، والمرابين ، ورجال الأعمال الذين حذقوا أساليب شراء غلات البلاد بأبخس الأثمان وبيعها بأغلاها ، هؤلاء كلهم قد استنزفوا خيرات البلاد ، ومن أجل هذا انضمت إلى ثورة مثراداتس وعوقبت على انضمامها إليها أشد العقاب ، فحوصرت أثينة حصاراً أهلك فيها الحرث والنسل ، ونهبت كنوزها كل ذائق . وإليس ، وإيدورس .

وبعد جيل من ذلك الوقت تقابل قيصر وبمبي ، ثم انطونيوس وبروتس ،

على أرض اليونان ، وجندوا أهلها في جيوشهم ، واستولوا على محصولات البلاد وذهبها ، وجبوا في عامين ضرائب عشرين عاماً ، وتركوا المدائن خاوية على عروشها . وانتبشت آسية اليونانية تحت حكم أغسطس ، ولكن بلاد اليونان نفسها ظلت فقيرة ، ولم يكن سبب فقرها هو الفتح الروماني بل كان هو الاستبداد الذي خنق أرواح الأهلين في اسبارطة ، والحرية التي انحطت حتى أصبحت فوضى في أثينة ، وما جرّه على البلاد عقم الرجال وجذب التربة من وبال . ذلك أن أكثر أبنائها جزأة ومغامرة قد هجروها إلى الأراضي التي كانت أغنى منها وأحدث استقلالاً . وأدى قيام دول جديدة في مصر ، وقرطاجنة ، ورومة ، وقيام الصناعة في بلاد الشرق الهلنستي إلى ترك مواطن الروح اليونانية القديمة نخاوية مهجورة . وكانت رومة تنقل اليونان بمديحها وتنهب روائع فنها : فقد أخذ منها اسكورس Scarus ثلاثة آلاف تمثال ليزين بها ملهاه ، وأرسل كلجيو لا زوج عشيقته لينقب في بلاد اليونان عن التماثيل ، ونهب نيرون وحده نصف ما في دلفي من روائع النحت ؛ ولم يبسم الحظ لأثينة مرة أخرى إلا حين تولى هدریان الملك .

وكانت إيبروس هي التي انصب عليها غضب رومة أول الأمر في الحزوب المقدونية ، وأباحها مجلس الشيوخ إلى الجند ينهبونها ويعيشون فيها فساداً ، وبيع من أهلها خمسة عشر ألفاً في سوق الرقيق ؛ وبنى أغسطس عاصمة جديدة لإيبروس في نيقوبوليس ليخلد ببنائها انتصاره في أكتيوم القريبة منها . وما من شك في أن الحضارة قد وجدت فيها ملجأ ومعتصماً لأن « مدينة النصر » آوت إيكنتس ، واستمعت إلى تعاليمه . وكان حظ مقدونية خيراً من حظ جارتها الوفية ، فقد كانت هذه البلاد غنية بالمعادن والخشب ، وزادت حياتها التجارية نشاطاً بفضل طريق إجناتيا Egnatia الذي كان يصلها هي وتراقية من أبلونيا ودير هكيوم إلى بزنطية . وعلى هذا الطريق الرئيسي الذي لا يزال بعضه باقياً حتى الآن

كانت تقوم أهم مدن الولاية : إدسا ، وپلا ، وثسالونيكيا . وكانت هذه المدينة الأخيرة التي نعرفها نحن باسم سلانيك والتي كان اليونان يعرفونها باسمها القديم « نصر تساليا » عاصمة الولاية ، ومركز مجالسها ، وإحدى الثغور التجارية الهامة بين بلاد البلقان وآسية . أما تراقية الواقعة في شرقها فقد اقتصت نفسها بالزراعة ، والرعى ، والتعدين ؛ ولكنها كانت تشتمل على مدن كبيرة أهمها سرديكا Serdica ( صوفيا Sofia ) ، وفلپوپوليس Philippopolis عاصمتها ، وأدريانوپل ( أدرنه ) ، وپرنثس Perinthus ، وپزنطية ( اسطنبول الحالية ) . وهنا على القرن الذهبى ، كان التجار وضائكو السمك يجمعون ثروة طائلة بينما كان اليونان الذين يقطنون من ورائها في الداخل يتقهقرون أمام البرابرة المعتدين . وكانت الحبوب الواردة من داخل البلاد تجيء إلى أرصفتها ، كما كانت جميع تجارة سكوديا والبحر الأسود تؤدي المكوس وهي مارة بها ، ويكاد السمك لكثرته أن يقفز في الشباك وهو يجتاز مضيق البسفور . ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى أدرك قنسطنطين قيمة هذا الموقع العظيم وعرف أنه مفتاح العالم اليونانى — الرومانى القديم .

وتخصصت تساليا الواقعة جنوب مقدونية في إنتاج التمعح وتربية الجياد الجميلة . وقد وصف ديوكريستيم<sup>(١)</sup> جزيرة عوبية العظيمة التي أطلق عليها هذا الاسم ( كما أطلق اسم بووشيا على الجزيرة المسماة بهذا الاسم ) لما فيها من الماشية الحسنة الشكل ، وصفها بأنها تعود إلى البربرية في القرن الثانى الميلادى . وقد تجمعت في هذا الإقليم عدة عوامل كادت تمحو من الوجود سكانها الذين كانوا في يوم من الأيام شعباً زراعياً مطرد النماء والرخاء . وأهم هذه العوامل هي ما لاقاه الفقراء من عنت لتركز الأرض الزراعية والثروة في أيدي عدد قليل من الأسر ، وما لاقاه الأغنياء من عنت لثقل الضرائب والفروض الدينية المطردة الزيادة ، وقلة النسل لأنانية الرجال وحبهم الثراء أو لفقهم المدقع . وكانت نتيجة

هذا كله أن تركت الأرض مراعى للماشية في داخل أسوار خلقيس وإرنريا  
نفسهما . ولم تكن بووشيا قد فاقت مما حل بها من موت وما فرض عليها  
إمن الضرائب الباهظة أيام حروب سلا . ويقول استرابون « إن طيبة ليست  
إلا قرية صغيرة » ، قد انكشحت حتى لم تعد تشغل أكثر من الموضع الذي  
لم يكن قبل الإقلعتها . على أن مائة عام من السلم قد أعادت بعض الرخاء  
إلى بلاتية ، واحتفظت قبرونية التي كسب فليپ سلا على سهولها إمبراطوريتين  
عظيمتين ما يكفي من الروعة لاستبقاء أشهر رجل من أبنائها فيها . ويقول عنها  
هذا الإبن - أفلوطرخس - إنها بلغت من الصغر حداً لا يجب أن تصغر عنه  
بتركه إياها . وإنا لنجد في حياته الهادئة وتفكيره السار اللطيف ناحية مشرقة  
مبهجة من منظر نكد كتيب ، كما نجد فيه هو نفسه رجلاً مهذباً من رجال  
الطبقة الوسطى مستمسكا بفضائل العهد القديم ، ينطوى قلبه على الإخلاص  
لبلده ، والوفاء لأصدقائه ، والحب لأبنائه .

وقصارى القول أنه ليس في قصتنا كلها شخصية أظرف من شخصية  
أفلوطرخس القيرونى .

- وكان مولده في تلك البلدة حوالى عام ٤٦ م ووفاته فيها حوالى عام ١٢٦ .  
وكان يطلب العلم في أثينة حين كان نيرون يوالى انتصاراته في بلاد اليونان . وما  
من شك في أنه كان واسع الثراء لأنه رحل إلى مصر وآسية الصغرى ، وطاف  
مرتين بإيطاليا . وقد ألقى محاضرات باللغة اليونانية في رومة ، ويبدو أنه خدم  
بلده في بعض الشؤون الدبلوماسية . وكان يحب العاصمة العظيمة ، وآداب أشرافها  
الجلد ، وحياتهم الرقيقة ، ويعجب بقانونها الصارم ، ويقول مع إنيوس إن رومة  
قامت على دعائم من الأخلاق الطيبة العالية . وبينما هو يفكر في أمر هؤلاء  
النبلاء الأحياء والموتى خطر له أن يوازن بين أبطال رومة وأبطال اليونان . ولم  
يكن يقصد أن يكتب تاريخاً أو سراً فحسب ، بل كان يعزم فوق هذا أن يعلم

الناس الفضيحة والبطولة بضرب الأمثلة من التاريخ ؛ وحتى سيره المتماثلة Parallel Lives كانت في ذهنه دروساً في الأخلاق ، ولهذا تراه على الدوام معلماً لا يترك فرصة تمر دون أن يستخلص مغزى خلقيا من كل قصة ؛ وما من أحد قد قام بمثل هذا العمل أجمل مما قام به هو . وهو يحلرنا في سيرة الإسكندر بقوله إنه يهتم بالأخلاق أكثر من اهتمامه بالتاريخ ، ويأمل أنه حين يجمع بين عطاء الرومان وعطاء اليونان ويوازن بينهم يستطيع أن يبعث في نفوس قرائه دوافع للخلق الطيب والبطولة . وهو يعترف اعترافاً صريحاً لا يسعنا معه إلا أن نعفو عن زلاته بأنه قد صلح حاله لطول صحبته لأولئك الرجال الممتازين (٣) .

وليس من حقنا أن نتوقع في كتاباته دقة المؤرخ الحق ونزاهته ؛ فكتابه ليء بالأغلاط في أسماء الناس ، والأمكنة ، والتواريخ ؛ وتراه أحيانا ( إذا جاز لنا أن نصدر حكما عليه ) يخطئ في فهم الحوادث ، بل إنه ليقتصر في واجبين كبيرين من واجبات كل كاتب سير - وهما أن يبين أن أى شيء في أخلاق المترجم له وأعماله يرجع إلى الورثة أو البيئة أو الظروف ، وأن يتتبع تطور أخلاقه خلال نموه ، وما يلقي عليه من التبعات وما يقع فيه من أزمات : بل إنا لنخرج من كتاب أفلوطنرخس كما نخرج من كتاب هرقليطس بأن خلق الإنسان مقدر له . ومع هذا فما من إنسان قرأ كتاب « السير » ثم أحس بعد قراءته بما فيه من عيوب ، ذلك بأن هذه العيوب تختفي كلها في روايته الواضحة ، وحوادثه المثيرة ، وقصصه الفاتنة الساحرة ، وتعليقاته الحكيمة ، وأسلوبه الجزل . وليس في صفحاته البالغ عددها ألفاً ونمسمائة سطر واحد يجس القارى أنه حشولا ضرورة له ، بل إن كل جملة من جملة لها شأنها ومعناها . وقد شهد بفضل الكتاب مائة من عطاء الرجال - منهم قواد عسكريون ، ومنهم شعراء وفلاسفة ، فقالت عنه السيدة رولان Roland « إنه مربّع النفوس العظيمة » (٤) . وكتب عنه منتان يقول :

« إنى لا أستطيع الاستغناء عن أفلوطرخس فهو كتاب صلواتى » (٥) . وقد استمد منه شيكسبير كثيراً من قصصه ، وإن زأبه فى بروتمس لمستمد عن طريق أفلوطرخس من أخلاق الأشراف الرومان الأقدمين . وكان نابليون يحمل كتاب « السير » أينما ذهب لا يكاد يفارقه أبداً . ولما قرأ هين Heine هذه التراجم لم يسعه إلا أن يقفز على ظهر جواد وبعده به إلى فتح فرنسا . وقصارى القول أن بلاد اليونان لم تترك لنا كتاباً أئمن من هذا الكتاب :

وبعد أن شاهد أفلوطرخس عالم البحر الأبيض المتوسط عاد إلى قيرونية ورزق فيها بثلاثة أبناء وبنات واحدة ، وألقى محاضرات ، وألف كتباً ، وسافر إلى أثينة من حين إلى حين ، ولكنه قضى معظم وقته فى مسقط رأسه وعاش فيه عيشة أهله البسيطة . وكان يرى أن من الواجبات المفروضة عليه لبلده أن يجمع بين المنصب الرسمى والحياة العلمية حياة الدرس والتحصيل ، واختاره مواطنوه مفتشاً للمباني ، ثم كبير حكامها ثم بووتاركا Boeotarch أى عضواً فى المجلس الوطنى . وكان يرأس المواكب والاحتفالات البلدية ، وأصبح فى أوقات فراغه كاهناً فى مهبط الوحي فى دلفى ، وكان هذا المنصب قد عاد إلى الوجود . وكان يرى أنه ليس من الحكمة أن يرفض الدين القديم لما فيه من عقائد لا يقبلها العقل ، لأن أهم الأشياء فى رأيه ليست هى العقيدة ، بل هو التأييد الذى تستمد منه أخلاق الإنسان الضعيفة ، وما توجد أعضاء الأسرة الأموات بين الأجيال المتعاقبة فى الأسرة والدولة من روابط تبعث فىهما المزيد من القوة ، وكان يعتقد أن نشوة العاطفة الدينية هى أعمق تجارب الحياة . ولقد كان بفضل تسامحه الدينى وتقواه مجتمعين أن يضع أسس دراسة الدين المقارن فى رسالته التى كتبها عن العبادات الرومانية والمصرية (٦) . ومما قاله فى هذه الرسالة أن الأرباب كلها مظاهر لكائن واحد أعلى ، لا يحدده زمان ، يجل عن كل وصف ، بعيد عن الشئون الدنيوية والزمنية بعداً يترك للأرواح الوسطى Daimones أن تخلق العالم

وتنظم شئونه . وكان يقول أيضاً بوجود أرواح خبيثة ، يسيطر عليها . برأسها شيطان هو مصدر الفوضى جميعها وروحها ، وأصل كل الخبائث وجميع ما لا ينطبق على العقل في الطبيعة وفي بنى الإنسان .

ويرى أفلوطنرخس أن من الخير أن يؤمن الإنسان بخلود الأشخاص — بجنة ينعم فيها الأخيار ، ومطهر ، وجحيم يعذب فيه الأشرار . وكان من أسباب سلواه أن الإقامة في المطهر قد تطهر أى إنسان مهما خبث حتى نيرون نفسه ، وأنه قلما يوجد في الناس من يعذبون عذاباً سرمدياً (٧) . وكان يندد بالخرافات ويرى أن أهواها شر من الكفر نفسه ، ولكنه كان يقبل العرافة والتبوءات واستحضار الأرواح ويؤمن بأن الأحلام تنبئ عن المستقبل ، ولم يكن يدعى أنه فيلسوف مبتدع ، بل كان يقول عن نفسه ، كما يقول أبولوس وكثيرون غيره من فلاسفة ذلك العصر عن أنفسهم ، إنه يأخذ آراءه عن أفلاطون ويوفق بينها وبين زمانه . وكان يعيب على الأبيقوريين أنهم يستبدلون هول الفناء بالخوف من الجحيم ، وينتقد عيوب الرواقية ، ولكنه يرى ما يراه الرواقى من أن العنل بأوامر الله وإطاعة العقل شيء واحد (٨) .

وقد عني المتأخرون بجمع محاضراته ومقالاته وأسماها *الرواب (Moralia)* لأن معظمها مواعظ بسيطة لطيفة تبين ما تنطوى عليه الحياة من حكمة ، وهى تبحث في كل شيء ، من الخث على استبقاء كبار السن في المناصب العامة إلى البحث في أيهما أسبق الكيكوت أو البيضة . وأفلوطنرخس مغرم بمكتبته ، ولكنه يقر بأن الصحة الجيدة خير من الكتب القيمة :

« من الناس من يدفعهم الشره فيهرعون إلى الخانات يلتهمون ما فيها كأنهم يستعدون لحضار . . . إن أقل الأطعمة ثنأ هي على الدوام أكثرها نفعاً . . . ولما هيجز أزدشير ممنون في أثناء تقهقره السريع عن أن يجد ما يأكله غير خبز الشعير



（一）  
一〇  
二  
三  
四  
五  
六  
七  
八  
九  
十

والتين صاح قائلاً : « ما ألد هذا الذي لم يكن لي من قبل ا . . . » والنبيد .  
أفيد المشروبات على شريطة أن يكون في مناسبة سعيدة وأن يمزج بالماء . . .  
وأكثر ما يجب أن يخشاه الإنسان هو سوء الهضم الناشئ من أكل اللحوم  
لأنها تخمد العزيمة في أول الأمر ، وتترك بعدئذ رواسب ضارة بالجسم ،  
وخير ما يفعل الإنسان أن يعود جسمه عدم الحاجة إلى اللحم بالإضافة إلى  
غيره من الطعام ؛ ذلك بأن الأرض تخرج كميات موفورة من أشياء كثيرة .  
لا تفيد في التغذية فحسب ، بل تفيد كذلك راحة ومتعة أما وقد أصبحت  
العادة طبيعة ثانية غير طبيعية ، فإن تعاطى اللحوم يجب أن يكون . . . دعامة  
وسنداً لذاتنا ؛ وينبغي لنا أن نأكل غيرها من الأطعمة . . . التي هي أكثر  
منها موافقة للطبيعة ، وأقل منها سكاللة على شعلة التفكير التي توقد من مواد  
سهلة خفيفة إذا صح هذه التعبير (٩) .

وهو يحذو حذو أفلاطون في الدعوة إلى تكافؤ الفرص للرجال والنساء .  
على السواء ، ويضرب أمثلة كثيرة للنساء المثقفات في الأزمنة القديمة ( ولقد  
كان هناك نساء مثقفات في المحيط الذي يعيش فيه ) ، ولكنه ينظر إلى زنى  
الرجل بنفس السهولة التي ينظر بها إليه الرجل الوثني فيقول :

« إذا كان الرجل داعراً منهمكاً في ملذاته وزل مع عشيقته أو خادمة ،  
فلا يصح لزوجه أن تغتاظ لذلك أو تغضب ، بل يجب أن تعتقد أن احترامه  
ها هو الذي دفعه إلى أن يشرك في فجوره امرأة غيرها » (١٠) .

لكننا مع هذا إذا فرغنا من قراءة هذه المقاولات الممتعة الساحرة أحسنا  
بعد قراءتها ، بأنا كنا في صحة رجل رقيق القلب ، طيب في جوهره ، كامل في  
رجولته ، لا يسوءنا قط أن أفكاره عادية . وإن اعتداله هو الترياق الشافي من  
الهوى الفكري الذي يغلب على عصرنا الحاضر ، وإن عقله المتزن ، وفكاهته  
اللطيفة ، وإيضاحاته الجذابة لتدفعنا إلى القراءة دفعاً لا نقوى على مقاومته حتى  
في المواضيع المبتذلة منها . وإن الإنسان لترتاح نفسه حين يجد فيلسوفاً أوتي من

الحكمة ما يكفي لإسعاده ، وينصحنا بأن غلبنا أن نحمد الله على ما في الحياة  
من بركات ونعم عادية ، وألا نجعل دوامها سبباً في قلة ابتهاجنا بها :  
« يجب علينا ألا ننسى تلك النعم وأسباب الراحة التي نشترك فيها مع  
الكثيرين من الناس ، بل يجب . . . أن نبتهج لأننا نعيش ، وأننا أصحاء  
الأجسام ، وأننا نبصر ضوء الشمس . . . أليس من واجب الرجل الصالح  
أن يعدّ كل يوم عيداً ؟ . . . ذلك بأن العالم هو أجل المعابد وأجدرها  
بسيدها . في هذا المعبد يدخل الإنسان وقت مولده ، ولا تستقبله فيه تمائيل  
ساكنة من صنع الأيدي ، بل تستقبله مخلوقات أظهرها العقل الإلهي  
لحواسنا . . . من بينها الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والأنهار التي لا تنفك  
تصب الماء العذب صباً ، والأرض التي تخرج الطعام . . . وإذ كانت هذه  
الحياة هي أكمل إعداد لأسمى العبادات الدينية ، فإن غلبنا أن نكون على  
الدوام ممتلئين غبطة وبهجة » .

## فصل ثانٍ

### صيف هندي

تتمثل في أفلو طرخس حركتان قامتا في عصره أولاها العودة إلى الدين ،  
وثانيتهما انتهاء النهضة اليونانية في الآداب والفلسفة . وعمت الحركة الأولى  
جميع بلاد اليونان ، أما الثانية فكانت مقصورة على أثينة والشرق اليوناني .  
وازدهرت في هذه الأثناء ست مدن من مدائن الهلنوبونيز ، ولكنها لم تمد  
التفكير اليوناني إلا بالقليل . وهذه المدن هي مدينة باتري Patrae التي ظلت حية  
منتعشة خلال العصر الروماني والعصور الوسطى إلى أيامنا هذه بفضل التجارة  
الغربية وصناعة النسيج النشيطة . ومنها أولبيا التي أثرت من أموال السياح  
الوافدين إليها لزيارة تمثال زيوس الذي صنعه فدياس أو لمشاهدة الألعاب  
الأولمبية . ومن أكثر حوادث التاريخ اليونانية طرافة أن هذه المباريات التي  
كانت تقام مرة كل أربع سنين ، قد ظلت تقام من عام ٧٧٦ ق . م حتى  
عام ٣٩٤ م حين منعها ثيودوسيوس Theodosius . كذلك ظل الفلاسفة  
والمؤرخون يقدون إليها كما كانوا يقدون في أيام پرودكس وهيرودوت ليخطبوا  
في الجماهير المحتشدة لمشاهدة حفلات الألعاب . ويصف ديوكريستيم المؤلفين  
وهم يقرءون « مؤلفاتهم السخيفة » للمستمعين العابرين والشعراء وهم ينشدون  
أشعارهم ، والخطباء يملئون الهواء بصخبهم و« السوفسطائين الكثيري العدد  
كأنهم طواويس تز هو بنفسها » ، وقد جاءوا لينفخوا ريحهم على الجماهير (١٢) .  
وقد برهن ديوكريستيم بقوله هذا على أنه ليس أكثر صموتا من سائر القادمين .  
ويصور إبيكتتس النظارة وقد غصبت بهم المواقف غير المظلة وهم يتصببون  
عرقا وتلفحهم الشمس أو يفرقهم المطر ، ولكنهم لا يعشون بهذا ولا ذاك  
في غمرة من الضجيج والمعجيج التي كان ينتهي بها كل دور في اللعب

أوشوط في السباق (١٣). وظلت الألعاب القديمة النيمية Nemean ، والبرزخية ، والبيثية Pythian ، والأثينية الجامعة تقام باستمرار ، وأضيفت إليها ألعاب جديدة كالألعاب الهلينية الجامعة التي أقامها هديران ، وكان الكثير منها يشتمل على مباريات في الشعر أو الخطابة أو الموسيقى . فما هي ذى شخصية من شخصيات لوشيان تسأل : « ألا نستطيع أن نسمع الموسيقى اليونانية القديمة في الاحتفالات العظيمة ؟ » (١٤) وأدخلت الجالية الرومانية التي استوطنت كورنثة قتال المجالدين في هذه الألعاب ، وما لبث هذا القتال أن انتشر من كورنثة إلى غيرها من المدن حتى تدنس ملهى ديونيشس نفسه بهذه المذابح . واحتج كثيرون من اليونان - ديوكريستس ، ولوشيان ، وأفلو طرحس - على هذا التدنيس ، وتقدم ، دمناكس Demonax ، الفيلسوف الكلبي إلى الأثينيين يرجوهم ألا يسمحوا بهذه البدعة قبل أن يهدموا مذابح إلهة الرحمة في أثينة (١٥) ، ولكن الألعاب الرومانية ظلت تقام في بلاد اليونان حتى انتشر الدين المسيحي وكانت له السيادة في تلك البلاد .

وكانت اسبارطة وأرجوس لا تزالان يسرى فيهما دم الحياة إلى حد ما ، وأثرت إيدورس من مال زوارها مرضى الأجسام والنفوس الوافدين إلى ضريح اسكليبيوس . ولم يكدهم يفضى على كورنثة ، بعد أن أعاد قيصر بناءها ، نصف قرن من الزمان حتى أضحت لحسن موقعها على البرزخ المسمى باسمها أغنى المدن في بلاد اليونان . وكان يسكنها خليط من الرومان واليونان ، والسوريين ، واليهود ، والمصريين انزع معظمهم من بلادهم ومن أخلاقهم الأولى ، وعرفوا بنزعتهم التجارية والأبيقورية ، وبفسادهم الخلقى . وكان هيكل أفرديتى بنديوس القديم سوقا ذات تجارة رائجة ومركزا للدعارة الكورنثية . ويصف أبوليوس Apuleius حفلة راقصة فخمة شهدها في كورنثة مثلث فيها محاكمة پاريسس و « ظهرت فيها فينوس عارية الجسم إلا من شعار رقيق يغطي خصرها التحيل الجميل ، وحتى هذا الشعار كانت الريح تعبت به فتدفعه تارة إلى اليمن وتارة إلى

«الشمال» (١٦) . وهكذا لم تغير كورنثة أساليبها منذ أيام أسبازيا .  
فإذا انتقل الإنسان إلى أنكا عن طريق بجارا بدا الريف في فقر مدقع  
اجتمعت فيه عوامل التعرية ، وتمطيع الغابات ، واستنزاف الثروة المعدنية ،  
إلى الحروب ، والهجرة ، والضرائب الفادحة وقلة النسل ، فأحاله في عصر  
النسليم الرومانية صحراء مجدبة . ولم يكن في أنكا كلها إلا اثنتان من المدن  
ذوات الرخاء : إليسير التي كانت طقوسها الدينية الخفية تجتذب إليها الجماهير  
الغنية في كل عام ، وأثينة المركز التعليمي والثقافي للعالم القديم . وكانت  
معاهدها ونظمها القديمة — المجلس ، والجمعية ، والأركونية — لا تزال  
تقوم بعملها ، كما أن رومة قد أعادت إلى مجلس الأريويجس سلطته الأولى  
فجعلته مصدر الأحكام القضائية وحصن حقوق الملكية الحصين . وكان  
الحكام أمثال أنتيخوس الرابع ، وهيرود الأكبر ، وأغسطس ، وهديان  
ينافسون أصحاب الثراء أمثال هيرودس أنكس Herodes Atticus في هباتهم  
للمدينة ، فأعاد هيرودس بناء الملعب العظيم بالرخام حتى لم يكذب يبقى منه  
شيئاً في بنتلكس ، وأقام قاعة للموسيقى في أسفل الأكرودبوليس . وتبرع  
هديان بالمال اللازم لإتمام بناء الأولمبيوم Olympieum ، وشاد لزيوس ،  
وكان وقتئذ على حافة القبر (\*) — بيتاً خليقاً به في عنفوان شبابه .

وفي هذه الأثناء كانت شهرة أثينة الفذة في الآداب ، والفلسفة ، والتعليم ،  
وعلم وجود مدن أخرى تنافسها في هذه الميادين ، قد جذبت إلى مدارسها عدداً  
جماً من الشبان الأغنياء والطلاب الفقراء المحتاجين ، وكانت جامعته تضم عشرة  
كراسي للأساتذة ينفق عليها من مال المدينة أو الإمبراطور ، فضلاً عن جيش جرار  
من المحاضرين والمدرسين الخصوصيين . وكانت تلقى فيها دروس ومحاضرات في  
الأدب ، وفتق اللغة ، والبيان ، والفلسفة ، والرياضيات ، والفلك ، والطب ،  
والقانون . وكانت تلقى عادة في مدارس التدريب الرياضي أو دور التمثيل ، وأحياناً

---

(\*) يقصد أن عبادته توشك أن تزول وأن محلها المسيحية . ( المترجم )

في المعابد أو البيوت. ولم يكن يراعى في منهاج هذه المواد بأجمعها ، عدا الخطابة والقانون ، أن يؤهل الطالب لكسب عيشه ، بل كان يهدف بدلا من هذا إلى شحذ ذهنه ، وتقوية إدراكه ، وإمداده بقانون أخلاقي . وقد أثمرت هذه الدراسات ثمارها فأخرجت عدداً كبيراً من قوى العقول النابهة ، ولكنها أخرجت أيضاً آلافاً من الجدلبيين الذين لا هم لهم إلا التلاعب بالألفاظ ، والذين حولوا الفلسفة والدين إلى نظريات جدلية لا يعرف لها أول ولا آخر .

وإذ كانت موارد أثينة تعتمد إلى حد كبير على طلابها ، فقد كانت صابرة على تزقيهم وطيشهم . كان الطلاب الجدد يوجه إليهم مزاح عملي يسبب الأذى لغيرهم من المواطنين في بعض الأحيان ؛ وكان طلبة الأساتذة المختلفين يتشيعون لأساتذتهم ، ويهاجم بعضهم بعضاً ، وينشأ من ذلك شغب كثير شبيه بالشغب الذي يحدثه شباب هذه البلاد وتستخدم فيه العصي . وكان بعض الطلبة يحسبون أن في مقدورهم أن يتعلموا من العشيقات والمقامرین أكثر مما يتعلمون من جميع أساتذة الفلسفة ، ويشير ألسفرون Alciphron إلى أن أولئك النسوة كن ينظرن إلى الأساتذة نظرتهن إلى مناقسين هن بلداء عاجزين (١٧) . غير أنه كثيراً ما كانت تقوم بين الطلاب والأساتذة روابط قوية من الصداقة الطيبة الوفية ، فكان الكثيرون من الأساتذة يدعون الطلاب إلى الطعام ، ويرشدونهم إلى ما يقرءون ، ويعودونهم إذا مرضوا ، ويحرصون على أن يبقى آباؤهم مخدوعين في مبلغ تقدمهم . وكان معظم المحاضرين يعيشون من الأجور التي يوئديها لهم طلبتهم ، وكان عدد قليل من الأساتذة يتقاضون مرتبات من الدولة ؛ فكان كل واحد من رؤساء المدارس الفلسفية الأربع يتقاضى عشرة آلاف درنحة ( ٦٠٠٠ ريال أمريكي ) في السنة من الخزانة الإمبراطورية .

ومن هذه الدوافع نشأ عصر « السوفسطائية الثانية » - الذي عاد فيه إلى الظهور الخطيب - الفيلسوف الذي يتنقل من مدينة إلى مدينة كلما دعاه داعي

الكسب ، يلقى الخطب ، ويعلم التلاميذ ، ويتراعى في المحاكم عن المتقاضين ، ويعيش في بيوت الأغنياء مستشاراً روحياً ، ويكون أحياناً مبعوثاً مكرماً لدولة - مدينته . وازدهرت هذه الحركة في جميع أنحاء الإمبراطورية ، وبخاصة في العالم اليوناني ، في خلال الثلاثة القرون الأولى من التاريخ الميلادى ، وقد وصفهم ديوبقوله إن الفلاسفة لم يكونوا وقتئذ يقرءون جديداً عن الأساكفة (١٧) . ولم يكن هؤلاء السوفسطائيين الجدد ، كما لم يكن لإخوانهم الأقدمين ، مبادئ مشتركة بينهم ، وكانوا يصوغون تعاليمهم في عبارات بليغة ، ويحتدبون إليهم عدداً كبيراً من المستمعين ، ويصلون في كثير من الأحيان إلى مراكز عالية في المجتمع . وينالون رضاه الأباطرة ، ويجمعون ثروات طائلة . وكانوا يختلفون عن السوفسطائيين الأقدمين في أنهم قلما كانوا يتعرضون لشئون الدين أو الأخلاق ؛ بل كان همهم منصرفاً إلى الشكل والأسلوب ، والفن الخطابي والحذق فيه ، أكثر من انصرافه إلى المسائل الكبرى التي زعزعت عقائد العالم ومبادئه الأخلاقية . والحق أن السوفسطائيين الجدد كانوا من الأنصار المتحمسين للدين القديم ، ولقد احتفظ لنا فيلوستراتس Philostratus بتراجم زعماء السوفسطائيين في ذلك العصر ، وحسبنا أن نضرب مثلاً واحداً منهم . كان أدريان Adrian الصورى يدرس البيان في أثينة وارتقى حتى صار فيها أستاذ البيان للدولة . وكان يبدأ خطبته الافتتاحية بتلك العبارة الدالة على الفخر والكبرياء : « ها قد عادت الآداب مرة أخرى من فينيقة » . وكان يأتي إلى محاضراته راكباً عربية تجرها جراد ذات عدة من الفضة ، وعليه ثياب غالية تتلألأ فيها الجواهر ، ولما زار ماركس أورليوس مدينة أثينة أحب أن يمتحن أدريان فطلب إليه أن يرتجل خطبة في موضوع صعب . واجتاز أدريان هذا الاختبار بنجاح جعل هديران يخلع عليه كثيراً من أسباب التكريم ، من ذهب ، وفضة ، وبيوت وعبيد . ولما ارتقى أستاذاً للبيان في رومة ، كانت محاضراته جذابة مغرية إلى حد جعل أعضاء مجلس الشيوخ يوجدون جلساته وجهوراً السكان

يتكون دور التمثيل ، ويهرعون إلى سماعها مع أنه كان يلقيها باللغة اليونانية<sup>(١٩)</sup> . وتلك خطة تكاد تؤذن بموت الفلسفة ، فقد طغى عليها سيل البيان ، وغادرها التفكير حين تعلمت الكلام .

وكان الطرف الآخر جماعة الكليبيين . ولقد وصفناهم في غير هذا المكان - وصفنا ثيابهم الممزقة ، وشعرهم الأشعث ، ولحيتهم الكثة ، وجعبتهم وعكازهم ، ونزولهم بالحياة إلى أبسط الأمور ، وإلى الفحش في بعض الأحيان . وكانوا يعيشون معيشة الرهبان المتسولين ، في ظل نظام كهنوتي فيه مبتدثون ووؤساء أعلنون<sup>(٢٠)</sup> ، ولا يتزوجون ولا يعملون ، ويسخرون من تقاليد الحضارة ومظاهرها المصطنعة ، ويشهرون بالحكومات كلها على اختلاف أنواعها ، ويرون أنها بأجمعها عديمة النفع ، لا تعدو أن تكون تلصصاً سافراً ، ويستهزئون بالنبوءات ، و « الطقوس الخفية » والأرباب . وكان الناس كلهم يهجونهم ، وخاصة لوشيان ، فقد صب عليهم أقذع هجاء ، ولكن لوشيان نفسه كان يعجب بدموناكس Demonax ، الفيلسوف الكلبى المثقف الذى خرج عن كل ثروته ليعيش في فقر فلسفى ، والذى وهب حياته الطويلة التى دامت قرناً كاملاً ( ٥٠ - ١٥٠ م ) لمساعدة غيره من الناس ، وإزالة الخلاف بين المتباغضين والمدن المتعادية ، حتى لقد عظمته أثينة رغم أنها كانت تسخر من كل شيء . ولما اتهم أمام محكمة أثينة بأنه يرفض تقريب القرابين للآلهة ، برأته المحكمة حين قال إن الآلهة لا حاجة لها بالقرابين ، وإن الدين لينحصر فى الخنوع على جميع الخلق ، وكان هذا هو كل ما دافع به عن نفسه .

ولما أن تورطت الجمعية الأثينية فى نزاع حزبي كان ظهوره فيها كافياً لفض النزاع ، ولم يكن منه إلا أن غادرها دون أن ينطق بكلمة واحدة . وكان من عادته فى شيخوخته أن يدخل أى بيت من غير دعوة ، ويُطعم فيه ويتام . وكان كل بيت فى أثينة يسعى لأن ينال هذا الشرف<sup>(٢١)</sup> . ويتحدث لوشيان بعطف

أقل من هذا العطف على پرجرينس Peregrinns الذى جرب المسيحية ثم خرج عليها وانضم إلى جماعة الكلبين ، وندد برومة ، وحرص بلاد اليونان جميعها على الثورة ، وأدهش المجتمعين فى أولمبيا بأن جمع محرقة بنفسه ، وأوقد فيها النار ، وقفز إليها ، واحترق فى هبها ( ١٦٥م ) (٢٢) . وبهذا الاحتقار للثراء وللحياة نفسها كان الكلبيون يمهّدون السبيل لرهبان الكنيسة المسيحية .

ولما أنشأ فسبازيان ، وهديران ، وماركس أورليوس كراسى للفلسفة فى أثينة ، أغفلوا الكلبين والمتشككة ، ولم يعترفوا إلا بمدارس الفكر الأربع : الأكاديمية الأفلاطونية ، واللوقيون الأرسطوطيلية ، والرواقية ، والأبيقورية . وكانت الأكاديمية قد وسعت إيمان أفلاطون وافتخاره بالعقل الإنسانى حتى استحال إلى الشك العام الذى قال به كرنيدبز Carneades ، فلما أن مات هذا الفيلسوف المتشكك عادت هذه المدرسة فالت إلى النزعة الأصلية ، ورجع أنتيخوس العسقلانى الذى كان يعلم شيشرون فى المجمع العلمى ( ٧٩ ق . م ) إلى آراء أفلاطون فى العقل ، والخلود ، والله : وكانت اللوقيون وقتئذ قد قصرت بحوثها على العلوم الطبيعية جرياً على سنة ثيوفراسطس ، أو على كتابة الشروح والتعليقات فى ورع وخشوع على مؤلفات أرسطو . أما مدرسة أبيقور فكانت فى هذا العصر الدينى سائرة فى طريق الاضمحلال ، وقلما كان أحد من الناس يجروء على الجهر بعقائدها دون أن يشفع ذلك الجهر بتحفظات دبلوماسية . وكانت ألفاظ أبيقورى ، وكافر ، ومسيحى فى معظم بلاد آسية كلها ألفاظاً مترادفة ، تعبر عن الملح والدنس (٢٣) . وقد كانت للفلسفة الرواقية الغلبة على سائر الفلسفات من قبل ذلك الوقت بزم طويل ، وكان ما اتصفت به صورها الأولى من صرامة وكمال قد خفت حدته على يدى پانيتيوس وپوسيدونيوس ، وكلاهما من مواطنى رودس . فأما پانيتيوس Panaetius فإنه عاد إلى أثينة بعد موت سيبو ( ١٢٩ ق . م ) وأصبح

وقتئذ رئيس الاستوا Stoa ، وعرف الله بأنه روح مادية أو نَفَس مادي. (pneuma) ، يسرى في الأشياء جميعها ، ويظهر في النبات في صورة قوة النماء ، وفي الحيوان على هيئة النفس psyche ، وفي الإنسان على هيئة العقل Logos . وقد تطور هذا المذهب الغامض مذهب وحدة الله والكائنات إلى فلسفة أقرب إلى الفاسفة الدينية على أيدي خلفائه ، واقترنت نظرية التأديب الأخلاقي الرواقية من الزهد الكلي حتى أضحت الكلبية في القرن الثاني الميلادي وليس بينها وبين الرواقية فارق إلا في ردائها المهلهل على حد قول أحد الكتاب . ونرى الحركتين كلتيهما تتقدمان نحو المسيحية على أيدي إپكتتس وماركس أورليوس .

## الفصل الثالث

### إبيكتنس

وُلد إبيكتنس في هيرابوليس Hierapolis من أعمال فريجيا عام ٥٠ م ، وكانت أمه جارية فكان هو لهذا السبب عبداً . ولم تتح له فرصة للتعلم لأنه صار ينتقل من سيد إلى سيد ، ومن مدينة إلى مدينة ، حتى وجد نفسه مملوكا لإيفروديتس Epaphroditus وهو معتوق ذو سلطة في بلاط نرون . وكان ضعيف الجسم أعرج ؛ ولعل سبب ضعفه وعرجه هو وحشية أحد أسياده ، ولكنه عاش السبعين عاما التي يعيشها الرجل العادي . وقد سمح له إيفروديتس أن يستمع إلى محاضرات موسيوس روفس ، ثم حرره فيما بعد . وما من شك في إن إبيكتنس قد اشتغل معلماً في رومة ، لأنه كان بين من فروا منها حين نفي دومتيان الفلاسفة . ثم استقر في نقوبوليس واجتذب إلى محاضراته فيها طلاباً من جميع الأنحاء منهم أريان النيقوميدي الذي أصبح فيما بعد حاكم كيدوكيا . وقد دون أريان عبارات إبيكتنس ، وأكبر الظن أنه دونها بطريقة الاختزال ثم نشرها باسم "Diatribai" أي عبارات « ممسوحة » أو نسخ - وهي التي تذكر الآن بين قوائم أحسن الكتب في العالم بعنوان أحاديث Discourses (\*) وليس هذا الكتاب رسالة ثقييلة مملة بل هي حديث بسيط جيد ، وفكاهة حلوة ، تكشف في وضوح عن خلق متواضع حنون ، ولكنه خلق قسوى صارم . وكان إبيكتنس يستخدم سخريته اللاذعة للاستهزاء بنفسه وبغيره على السواء ، ويسخر في مزح من أسلوبه الجلف الخالي من التجميل . ولم يشك قط حين سمع ديناكس الأعزب العجوز ينصح الناس بالزواج ، وأراد أن يسخر منه فتقدم

(\*) وأصدر أريان فيما بعد كتابا آخر باسم Encheiridion أو « الموجز » لإبيكتنس .

إليه يخطب ابنته . وقد برّر عدم زواجه بحجة أن في تعليم الفلسفة خدمة لا تقل عظمة عن ولادة « طفلين أو ثلاثة أطفال فطس الأنوف » . واتخذ لنفسه في آخر أيامه زوجة تساعد على العناية بطفل أنجاه من الموت بسبب تعرضه لتقلبات الجو . وذاع صيته في جميع أنحاء الإمبراطورية في تلك الأيام ، وكان هديران يعدّه من بين أصدقائه .

وكان إبيكتس شبيها بسقراط في هذا وفي نواح أخرى كثيرة . ولكنه لم يعن بالطبيعة أو بما وراء الطبيعة عناية تحمله على إنشاء نظام فكري ، بل كان موضوعه الأوحاد الذي يشغف به ويوجه إليه كل عنايته هو الحياة لصالحه . ومن أقواله في هذا المعنى : « ماذا همنى من أن تكون الأشياء الموجودة . على ظهر الأرض مكونة كلها من ذرات . . . أو من النار والتراب ؟ أليس يكفيني أن أعرف حق المعركة ما هو الطيب وما هو الخبيث ؟ » (٢٥) . وليست الفلسفة في رأيه هي قراءة ما في الكتب من الحكمة ، بل هي تدريب الإنسان نفسه على اتباع الحكمة . وجوهر المسألة أن يشكل الإنسان حياته وسلوكه بحيث لا تتأثر سعادته بالظروف الخارجية إلا أقل التأثر . وهذا لا يتطلب منه أن يكون موقفه من الحياة موقف النساك ، بل إن « الأبيقوريين ، وأسافل الناس » ملومون لأنهم يحولون بين الناس وبين أداء الخدمات العامة ، والرجل الصالح يقوم بنصيبه في الشؤون المدنية ، ولكنه يرضى ، وهو هادئ مطمئن ، بجميع ظروف الزمان : من فقر ، وحرمان ، وإذلال ، وأم . ، ورق ، وسجن ، وموت . ويعرف كيف « يصبر وينبذ » .

« لا تقل عن شيء ما » « إننى فقدته » بل قل فقط « إننى رددته » : هل مات لك طفل ؟ لقد رُدّ . هل ماتت لك زوجة ؟ لقد أعيدت . « لقد اغتصبت منى مزرعى » . حسن جداً ، هذه أيضاً قد ردت . وما دام الله وهبك إياها فاعتن بها على أنها ليست لك . . . « أسنى على أننى أعرج ! » أيتها العبد !

أنتوتب الكون لأنك فقدت ساقاً حقيرة ؟ ألا يليق بك أن تنزل عنها هبة خالصة للكون كله ؟ . . . وإذا أرغمت على الخروج من بلدى مننيا ، فهل فى مقدور أحد من الناس أن يمنعنى أن أخرج مبتسماً هادئاً ؟ . . . « سألتك فى السجن » . إنك لن تسجن إلا جسمى ؛ وسأمت حتماً ، فهل يجب إذن أن أموت شاكياً ؟ . . . تلك هى الدروس التى يجب أن تبدئها الفلسفة وتعيدها ، وتدوتها كل يوم ، وتمارسها . . . ليست منصة الخطابة وليس السجن إلا مكانين ، أحدهما عال والآخر منخفض ، ولكن هدفك الأخلاقى يجب أن يكون واحداً فى كلتا الحالتين (٢٧) .

« وفى مقدور العبد أن يكون حر الروح كديجين ، وفى وسع السجين أن يكون حراً كسقراط ، وقد يكون الإمبراطور عبداً كنيرون (٢٨) ؛ وليس الموت نفسه إلا حادثاً عارضاً فى حياة الرجل الصالح ، فى وسعه أن يستعجله إذا تبين أن الشر يرجح كثيراً على الخير (٢٩) . وخلق به على أية حال أن يستقبله فى هدوء ، وأن يرى فيه جزءاً من حكمة الطبيعة المكونة .

« لو أن سنابل الحب كان لها إحساس ، فهل كانت ترجو ألا تحصد ؟ . . . إنى أحب أن تعلم أنك لو عشت أبداً الدهر لكان عيشك هذا نقمة . . . إن السفينة تفرق ، فاذا أفعل إذن ؟ مهما استطعت أن أفعل . . . فسأغرق دون أن أخشى شيئاً أو أن أحجم أو أجدف فى حق الله ، بل أعتقد أن من يولد لا بد أن يهلك . ذلك أنى جزء من الكل كما أن الساعة جزء من اليوم . على أن أجيء كما نجيء الساعة ، وأن أنقضى كما تنقضى (٣٠) . . . يجب ألا تعد نفسك أكثر من خيط واحد بين جميع الخيوط التى تتكون منها الثوب (٣١) . . . لا تسع لأن يكون ما يحدث لك يحدث كما تحب ، بل أحب أن يحدث ما حدث كما حدث ، فإن فعلت وجدت الهدوء والطمأنينة » (٣٢)

وكثيراً ما يتحدث إبيكتس عن الطبيعة بوصفها قوة غير ذات شخصية ،

ولكنه في كثير من الأحيان أيضاً يجعل لفكرته عن الطبيعة شخصية ،  
وذكاء ، وعاطفة حب . وترى الجو الديني الذي كان يسود عصره يغمر  
فلسفته ويحيلها تقوى مستسلمة شبيهة بتقوى الإمبراطور الذي قرأ فلسفته  
وردد صدى أفكاره بعد زمن قليل . فهو يتحدث حديثاً بليغاً رقيقاً عن  
النظام الفخم الذي يسود الزمان والمكان ، وعماً في الطبيعة من خطط موضوعية ،  
ولكنه ينتقل من هذا ليقول إن « الله قد خلق بعض الحيوانات لكي يؤكل ،  
وبعضها الآخر لكي يعمل في المزارع ، وبعضها لكي يخرج الجبن » (٣٣) ،  
وهو يعتقد أن العقل البشري نفسه أداة عجيبة لا يستطيع أن يوجد لها إلا إله  
خالق ؛ وإننا وقد وجدت لنا عقول لا بد أن نكون في الواقع أجزاء من  
العقل العالمي . ولو أننا استطعنا أن نرجع بأنسابنا إلى الإنسان الأول لوجدنا  
أنه من أبناء الله ؛ فالله إذن أبونا جميعاً بالمعنى الحرفي للفظ الأبوة ، والناس  
كلهم إخوة (٣٤) .

« لم يحجم من راقب تصريف شئون العالم وفهمها وعرف أن أعظم  
المجتمعات وأوسعها هو نظام (Systema أى الوقوف الإجماعي) الخلق  
والله ، وأن الله هو الذي انبعثت منه الأصول التي نشأت منها جميع الأشياء  
وخاصة الكائنات العاقلة ، لم يحجم عن أن يسمى نفسه مواطناً عالمياً . . .  
أو بعبارة أصح . ابن الله ؟ وإذا استطاع إنسان أن يؤمن بهذا المبدل بقلبه  
وروحه . . . فأكبر ظني أنه لن تخالجه قط فكرة دينية أو غير شريفة . . .  
فلا تنس إذن وأنت تأكل ، من أنت الذي يأكل ، ومن هو الذي تغذية ؛  
وإذا ضاجعت النساء فاذا ذكر من أنت الذي تفعل هذا . . . إنك تحمل الله  
منك . . . أنت أيها التعس المسكين ، وإن كنت لاتعرف ! (٣٥)

ويحث إپكتتس طلابه في فقرة خليقة بأن يكتبها القديس بولس أن  
يسلموا لإرادتهم لله في ثقة واطمئنان ، وألا يقتصروا على هذا بل يكونوا  
فضلاً عن ذلك رسلاً لله بين بني الإنسان فيقول :

يقول الله : « اذهبوا وكونوا شهداء لى على الناس » (٣٦) . . . وفكره فى المعنى الذى ينطوى عليه قولكم : « لقد بعثنى الله إلى العالم لأكون جنوداً من جنوده وشاهداً من شهوده ، ولأخبر الناس أن أحزانهم ومخاوفهم عبث وبطلان ، وأن الشر لا يمكن أن يصيب الرجل الطيب ، حيا كان أو ميتاً . والله يبعثنى يوماً هنا ويوماً هناك ، ويؤدبني بالفقر وبالسجن لكي أكون شاهداً حقاً له بين الناس ، وإذا ما قمت بهذه الرسالة ، فهل يعينني أى مكان أكون فيه ، أو من يكون رفاقي ، أو ماذا يقال عني أجل ، ألا تكون فطرتي كلها منجذبة نحو الله ، ونحو شرائعه ووصاياه (٣٧) . أما هو نفسه فقد كان غموض الأشياء ولألاؤها يملآنه رهبة وشكراً . وهو يترنم للخالق بتسبيحة وثنية تعد من أروع الفقرات فى تاريخ الأديان :

« أية لغة نرقى إلى الثناء على جميع أعمال العناية الإلهية ؟ . . . أفا كان خليقاً بنا ، لو كانت لنا عقول ، أن نصرف وقتنا كله فى التغنى بمجد الإله والتسبيح بحمده ، والتحدث بنعمه ؟ أليس من واجبنا ونحن نحفر الأرض ونفلقها ، ونأكل من ثمارها ، أن تلهج ألسنتنا بالثناء عليه ؟ - وماذا بعد هذا ؟ - أما وقد أصبحت كثر تكلم الغالبة عمياء ، أفلا يجب أن يكون هناك إنسان يؤدى هذا الواجب بدلا منكم ، وينوب عنكم جميعاً فى التغنى بمدح الله ؟ » (٣٨) .

إننا لنجد فى هذه الفقرات تشابهاً عجبياً بينها وبين كثير من أفكار المسيحية الأولى ، وإن كنا لا نرى فيها كلمة واحدة عن الخلود ، وإن كان فى وسعنا أن نرجع بها جميعاً إلى عقائد الرواقين والكلمبيين . والحق أن إبكتتس ليتقدم أحيانا على المسيحية ؛ يتقدم عليها فى تنديده بالاسترقاق ، وفى وجوب تحريم عقوبة الإعدام ، وفى مناداته بأن يعامل المجرمون على أنهم مرضى يحتاجون إلى العلاج (٣٩) . وهو يدعو الناس إلى أن يحاسبوا ضميرهم فى كل يوم من

حياتهم<sup>(٤٠)</sup> ، ويضع لهم قاعدة من نوع القواعد الذهبية : « لا تكن سبياً في أن يتعذب الناس بما لا تحب أن تتعذب به أنت »<sup>(٤١)</sup> ، ويضيف إلى ذلك قوله : « إذا قيل لك إن إنسانا يتحدث عنك حديث سوء ، فلا تدافع عن نفسك بل قل : إنه لو عرف سائر عيوبى لما ذكر هذه وحدها »<sup>(٤٢)</sup> . وهو ينصح الناس بأن يجزوا الإساءة بالإحسان ، « وألا يردوا الشتم إذا شتموا ! »<sup>(٤٣)</sup> ، وأن يصوموا من حين إلى حين ، وأن « يمتنعوا عما يشتهون »<sup>(٤٤)</sup> . وتراه أحياناً يتحدث عن الجسم باحتقار مزر كالذى يتحدث به عنه الناسك الذى لم يتطهر بعد من ذنوبه : « إن الجسم أقدر الأشياء جميعاً وأخبئها . . . ومن أغرب الأشياء أن نحب هذا الشيء ونؤدى له هذه الخدمات العجيبة فى كل يوم . أنا أملأ هذا الكيس ، ثم أفرغه ، فهل ثمة عمل أكثر من هذا مشقة ؟ »<sup>(٤٥)</sup> .

ومن أقوال إبيكتس فقرات تنطق بتقى أوغسطين وفصاحة نيومن Newman : « تصرف فى يارب كما تشاء ، إن عملى منك وإليك ؛ وأنا ملك لك . ولست أطلب أن أعنى من شىء ترى أنت أنه خير . اهدنى إلى حيث تريد ، واكسنى بما تشاء من الثياب »<sup>(٤٦)</sup> ، وهو يأمر أتباعه كما يأمرهم عيسى بالأهتمام بأمر غد :

« إذا كان الله خالقنا ، وأبانا ، وولينا - أفلا يكفى هذا لأن يرد عنا الحزن والخوف ؟ ويتساءل بعض الناس : من أين أظعم إذا لم يكن عندي ما أظعمه ؟ ولكن ماذا تقول عن الحيوانات التى يكفى كل منها بنفسه ، ولا يعدم ما يصلح له من الطعام ، ولا ينقصه ما يوائمه ويتمشى مع طبقته من أساليب الحياة ؟ »

وهل من عجب بعد هذا أن يثنى عليه المسيحيون أمثال القديس يوحنا وكريستوم وأوغسطين ، وأن يتخذ كتابه « الموهب » بعد تغيير طفيف قاعدة لحياة النساء فى الأديرة ومرشداً لمن ؟<sup>(٤٧)</sup> . ومن يدرى ، لعل إبيكتس قد قرأ أقوال عيسى فى صورة ما وأنه قد اعتنق المسيحية على غير علم منه .

## فصل الرابع

### لوشيان والمتشككة

ومع هذا فقد كان في هذه المرحلة الأخيرة من مراحل الثقافة الهلنستية متشككة يعيدون إلى الأذهان شكوك بروتجوراس ، وكان فيها لوشيان ، سخر من العقائد الدينية بوقاحة كوقاحة أرسطبس ، وبأسلوب لا يكاد يقل سحراً عن أسلوب أفلاطون . ولم تكن مدرسة بيرو Pyrrho قد ماتت بعد ، وقد أعاد إينسديمس Aenesidemus النسوسى صياغة أقوالها الإنكارية بمدينة الإسكندرية في القرن الأول الميلادى ، وذلك في « الأساليب » Tropoi العشرة أو المتناقضات التى تجعل المعرفة مستحيلة(\*) . وفي أواخر القرن الثانى صاغ سكستس إمبركس Sextus Empiricus ، وهو رجل لا نعرف له تاريخاً ولا موطناً . فلسفة المتشككة فى شكلها الأخير وضمنها عدة مجلدات هدامة بقيت منها حتى الآن ثلاثة . ويتخذ سكستس العالم كله عدواً له ، ويقسم الفلاسفة أجناساً مختلفة ، ويقضى عليهم واحداً

---

(\*) منها (١) أن أعضاء الحس (كالعينين) فى الحيوانات المختلفة ، بل وفى الآدميين المختلفين ، تختلف فى شكلها وتركيبتها ، وأن المفروض فيها أنها تنقل لصاحبها صوراً للعالم مختلفة . وأنى لنا أن نعرف أى هذه الصور هو الصحيح ؟ (٢) وأن الحواس لا تنقل إلا جزءاً صغيراً من الجسم المحس كجزء محدد من الألوان ، والأصوات والروائح ؛ وما من شك فى أن الصورة الذهنية التى تتكون لدينا عن هذا الجسم صورة جزئية غير موثوق بصحتها (٣) وأن هذه الحواس قد تمارض إحداها مع حاسة أخرى (٤) وأن الجسم المحس يتلون ، وقد يتلون خطأ ، بمجالتنا الجسمية والعقلية : حالة اليقظة أو النوم ، والشباب أو الشيخوخة ، والحركة أو السكون ، والجوع أو الشبع ، والكره أو الحب ، (٥) وأن مظهر الشيء المحس يختلف باختلاف حالة البيئة التى تحيط به - من ضوء ، وهواء ، وبرد ، وحر ، ورطوبة الخ ، فأى مظاهره هو الصحيح ؟ (٦) وأن لاشئ يمكن معرفته بنفسه أو معرفته معرفة مطلقة ، فهو لا يعرف إلا بصلته بشئ آخر أى بوصفه جزءاً من كل (٧) وأن عقائد الفرة موقوفة على العادات ، والدين ، والنظم ، والقوانين التى نشأ فيها ، وما من فرد يستطيع أن يفكر تفكيراً موضوعياً .

بعد واحد ، ويكتب بالقوة الخليقة بالجلادين ، وبالترتيب الحسن والوضوح اللذين تمتاز بهما الفلاسفة القديمة ، ولا يخلو أسلوبه من الفكاهة الساخرة ومن فتات من المنطق الكثيب .

ويقول سكبستس إن كل حجة يمكن معارضتها بحجة مساوية لها ، ومن أجل هذا لن نجد في آخر الأمر شيئاً لا ضرورة له أكثر من التعليل . والاستدلال لا يوثق به إلا إذا قام على أساس الاستقراء الكامل ؛ ولكن الاستقراء الكامل مستحيل ، لأننا لا نستطيع أن نتبين متى يظهر أمامنا « مثل سلبي » (٥١) . وليست « العلة » إلا سابقة منتظمة ( كما يكرر هيوم Hume ) ، والمعرفة كلها نسبية (٥٢) . كذلك لا يوجد خير أو شر موضوعي ، فالمبادئ الأخلاقية تختلف باختلاف البلاد (٥٣) ، وللفضيلة في كل جيل تعريف يختلف عن تعريفها في كل جيل آخر . وإنك لتجد في أقوال هذا الفيلسوف جميع الحجج التي أدلى بها في القرن التاسع عشر عن إمكان معرفة وجود الله أو عدم وجوده . كما تجد فيها جميع الأقوال المتعارضة بين قدرته العليا الخيرة والآلام الدنيوية (٥٤) . ولكن سكبتس أكمل لأدرية من اللاأدرين ، لأنه يؤكد أننا لا نستطيع أن نعرف أننا لا نعرف . ويقول إن اللاأدرية عقيدة (٥٥) ، ولكنه يواسينا بقوله إننا لسنا في حاجة إلى الحقيقة المؤكدة ، وإن في الترجيح ما يفي بجميع أغراضنا العملية ، وإن تعليق الحكم في المسائل الفاسفية بدل إزعاج العقل به يهبه الهدوء الناشئ عن عدم الاهتمام (Atarasia) (٥٦) ، وإذ لم يكن ثمة شيء مؤكد فلنقبل عرف الزمان والمكان اللذين نعيش فيهما وعقائدهما ، ولنعبد أربابنا القدامى متواضعين (٥٧) .

ولو أن لوشيان قد أوتي من الحمق ما جعله يقيد عقله بالانتماء إلى طائفة خاصة من الفلاسفة لكان من طائفة المشككة . وكان يكتب الفلسفة كما يكتبها تقليد الذي يشبهه في كل شيء إلا في عطف قلبي وحنانه ، يكتبها بأسلوب بلغ من

الإشراق والوضوح جداً لا يظن معه إنسان أنه يكتب الفلسفة . وكان مولده في سموساتا Samosata من أعمال كمجيني Commagene البعيدة ، وكأنه قد ولد في هذا المكان بالذات ليدلنا على مدى انتشار الهلنستية . وقد قال عن نفسه : « أنا سوري من بلاد الفرات » . وكانت لغته الأصلية هي السريانية ، وأكبر الظن أن الدم الذي كان يجري في عروقه هو الدم السامي (٥٨) . ثم ارسل ليتمرن على النحت عند مثال ، ولكنه ترك النحت وأخذ يدرس البلاغة ؛ وبعد أن أقام في أنطاكية يمارس صناعة الحمامة شرع يتجول في الطرقات كما يفعل « العالم المستقل » ، يكسب عيشه بإلقاء المحاضرات ، وخاصة في رومة وغالة ؛ ثم أتى عصا التسيار في أثينة (عام ١٦٥ م) ، وأنجاه ماركس أورليوس الورع المتسامح من الفقر في آخر أيامه ، وعين المتشكك غير المحترم في منصب رسمي في مصر ، حيث مات في تاريخ غير معروف .

وقد أقيمت الأيام على ستة وسبعين كتاباً من كتب لوشيان الصغيرة ، وكثير منها لا يقل جودة ومناسبة لأحوال هذا العصر عما كانت عليه حين كان يقروها على أصدقائه ومستمعيه قبل ثمانية عشر قرناً من الزمان . وقد أخذ يجرب أفانين مختلفة من الكتابة حتى عثر أخيراً على أسلوب الحوار الممتع الظريف . وقد بلغ كتابه مجاورات الحظيات من التحرر درجة جعلت له كثيرين من القراء ، ولكنه كان في كتبه على الأقل أكثر انهماكاً الآلهة منه في الحظيات ؛ وهو لا يفرغ قط من الإساءة إليهن . ويقول في كتابه هذا على لسان منيپس Menippus : « كنت وأنا غلام أستمع إلى قصص هومر وهزيود عن الآلهة - الآلهة الزانين ، الآلهة الجشعين النهائيين ، الآلهة العنيفين المتنازعين ، مرتكبي الفحشاء مع المحارم : ولم أكن أجدر في هذا كله مأخذاً ، بل إنني في واقع الأمر وجدت فيه متعة عظيمة ؛ ولكنني حين بلغت سن الرشد وجدت الشرائع تناقض أقوال الشعراء مناقضة تامة ، فتحرم الزنى والسلب والنهب » .

وتحير منس فذهب إلى الفلاسفة يستوضحهم الأمور ، ولكنهم كانوا مشغولين بأنفسهم يحاول كل منهم أن يفند حجج غيره ، فلم يزيده إلا حيرة واضطرابا ، ولم ير بدأ من أن يصنع له جناحين ، ويطير بهما إلى السماء ، ويفحص عن الأمر بنفسه . واستقبله زيوس أحسن استقبال ، وأكرم وفادته ، وسمح له أن يراقب مجرى الأمور من فوق أولمبس . وكان زيوس نفسه يستمع إلى الصلوات وهي تأتي إليه من « صف من الفتحاح لها أغطية كأغطية الآبار . . . وكان من بين الخاق الذين يعملون في البحار رجل يطلب ريحا شمالية وآخر يطلب ريحا جنوبية . وكان الزارع يدعوه ليرسل إليه المطر ، والقصار يدعوه أن يرسل إليه الشمس . . . وخيل إلى الرجل أن زيوس قد تحير في أمره ، لا يعرف أى دعاء يستجيب له ، فامتنع عن الحكم امتناع العلماء الحقيقيين ، وأظهر من التريث والالتزان ما هو خليق ببيرو نفسه »<sup>(٥٩)</sup> . ثم يرفض الإله بعض المطالب ، ويستجيب لبعضها الآخر ، ثم ينظم طقس اليوم : فيرسل المطر إلى سكوذا ، والثلج إلى بلاد اليونان ، والعواصف إلى البحر الأدرياي ، و « يصرخ صرخة تبعث بعشرين مكايلا من البرد إلى كيدوكيا » . ويغضب زيوس من الآلهة السمجة الغربية التي تسلت إلى مجمع آلهته ، فيصدر أمرا يقول فيه إن جبل أولمبس قد ازدحم بالآلهة الأجنبية المتعددة الأجناس حتى ارتفع ثمن الرحيق الذي نشربه ، وأخرجت منه الآلهة القديمة ، التي هي دون غيرها الآلهة الحقمة ، ولهذا فإن لجنة من سبعة ستشكل لتنظر في مطالب الآلهة .

وفي كتاب **التحفيز مع زيوس** يسأله فيلسوف أبيقورى : هل الآلهة هي الأخرى خاضعة للأقدار ؟ فيجيب چوف الظريف بقوله : نعم . فسأله الفيلسوف : « ولم إذن يقرب الآدميون لك القرابين ؟ . وإذا كان القدر هو المسيطر على الآدميين والأرباب ، فلم نكون مسئولين عن أعمالنا ؟ » ، فيرد عليه زيوس بقوله : « يتبين لي أنك كنت مع تلك الجماعة اللعينة جماعة .

«السوفسطائيين» (٦٠) ؛ وفي زنبوس تراهوروس Zeus Tragoedus ترى الإله مكتئبا ساخطا لأنه يرى جمعا محتشداً في أثينة يستمع إلى داميس Damis الأبيقورى ينكر وجود الآلهة واهتمامها بالخلق ، بينما يؤكد ذلك تمكليز Temocles الرواقى . ثم ينهزم تمكليز ويقر من الميدان ، ويأس زيوس من مستقبله ، ولكن هرمس يواسيه بقوله : « لا يزال فى الأرض كثيرون من المؤمنين ، هم الكثيرة الغالبة من اليونان ، أواسط الشعب وسفلة ، والبرابرة على بكرة أبيهم » (٦١) . ولم يتهم لوشيان بالكفر لقوله هذا ، وفى ذلك دليل إما على روح التسامح التى كانت تسود ذلك العصر وإما على قرب زوال الآلهة اليونانية من الوجود .

وكان لوشيان يتشكك فى قيمة البلاغة والفلسفة تشككه فى الدين القديم . فى إحدى محاورات الموتى يأمر كارون Charon أحد البلغاء ، وهو ينقله إلى الدار الآخرة ، « أن تثير ما بلغك من طول الجمل الذى لا آخر له ، ومن الطباق والمقابلة والعبارات المتوازنة » - وإلا غرق القارب حتماً (٦٢) . وفى هرموتيمس Hermotimus ترى طالبا يبدأ دراسة الفلسفة متحمسا لها راجيا أن يستعصم بها بعض الاستعاضة عن الإيمان ، ولكنه يصنطدم بما يتصف به المعلمون المتنافسون من غرور وشره ، ويتركه هؤلاء المعلمون عاريا ذهنا وخاقيا ، لأن كل فريق منهم يقضى وقته فى دحض حجج الفريق الآخر ، ولهذا « سابتعد عن الفيلسوف كما أبتعد عن الكلب » على حد قوله فى ختام حديثه (٦٣) . ويعترف لوشيان نفسه الفيلسفة بأنها محاولة « للوصول إلى مرتفع تتطلع منه إلى جميع الجهات » (٦٤) . وتبدوله الحياة من هذا المرتفع كأنها خليط مهوش سخيف ، أو جوقة مضطربة مختلة النظام ، يتحرك فيها الراقصون ويصرخون كل كما يريد حتى يطردهم رئيس الفرقة من فوق المسرح واحداً بعد واحد (٦٥) . ويصور

في « طاروه » منظر البشر ، كما تراهم عين فوق عين الأدميين من قمة سماوية عالية ، صورة حالكة السواد : صورة خلائق يفلحون الأرض ، ويكدحون ، ويتنازعون ، ويتماضون في المحاكم ، ويرابون ، ويعششون ويعششون ، ويمجرون وراء الذهب أو اللذة . وفوق رؤوسهم سحابة من الآمال والمخاوف ، والحق ، والكراهة ، ومن فوق هذه كلها تمزق الأقدار خيط الحياة لكل ذرة بشرية ؛ لإنسان يرتفع من بين جمهرة الناس ثم يسقط إلى الحضيض ، وكل إنسان يسحبه بلوره رسول من رسل الموت . ويبصر كارون جيشين يقتتلان في أرض الهلوبيونيز ، فيعلق على قتالهم بقوله : « ما أشد حق هؤلاء ! إن كلا منهم لا يعرف أنه وإن كسب الهلوبيونيز وحده لن يكون له آخر الأمر إلا قدم واحدة من الأرض » (٦٦) . ولوشيان لا يجاني أحداً شأته في هذا شأن الطبيعة نفسها ، فهو يهجو الأغنياء لشدهم ، والفقراء لحسدهم ، والفلاسفة لشراكتهم ، والآلهة لعدم وجودهم . ويختم حديثه في آخر الأمر بما يختم به فليتر حديثه وهو أنه ينبغي للإنسان أن يزرع حديثه : فنبس Menippus يجد تيرسياس Teiesias في الدار السفلى ويسأله : ما خير أنواع الحياة ؟ فيجيبه النبي الشيخ بقوله :

إن حياة الرجل العادي خير أنواع الحياة ، ومن اختارها كان أكثر الناس فطنة ؛ وإياك وسخف المجادلات فيما وراء الطبيعة والبحث في أصول الأشياء وغاياتها ؛ ولا تمسبن هذا المنطق كله إلا هراء في هراء ، ولا تسع إلا لغاية واحدة وهي كيف تعمل ما تجده يدك لتعمله ؛ وسر في طريقك . دون أن تنفعا ، قط وعلى فلك ابتساماً على الدوام (٦٧) .

وقصارى القول أن التفكير اليوناني في القرنين الأولين من التاريخ الميلادي تطغى عليه النزعة الدينية على الرغم من لوشيان وآرائه . لقد خسرت الناس قبل ذلك العهد إيمانهم وعمدوا إلى المنطق ؛ أما في الوقت الذي نتحدث عنه فقد كانوا يخسرون المنطق ويعودون سراغاً إلى الإيمان . ذلك أن الفلاسفة اليونانية

كانت قد أتمت دورتها مبتدئة باللاهوت-البدائي ، ثم انتقلت منه إلى تشكك  
السوفسطائيين الأولين ، ثم إلى كُفر دمقريطس ، فداهمة أفلاطون ومحاولته  
التوفيق بين الزعتين ، فزعة أرسطو الطبيعية ، فعميدة وحدة الله والكون  
التي كانت تنادى بها الاستواء ، فالعودة إلى فلسفة التصوف والاستسلام  
والتقوى . أما المجمع العلمي فقد انتقل من أساطير مؤسسة النعمية عن طريق  
تشكك كرنيديز Carneedes إلى خشوع أفلوطرخس القائم على العلم .  
ولا يلبث أن يبلغ الذروة في رؤى بلوننس الساوية . لقد نسى الناس كشوف  
فيثاغورس العالمة العظيمة ، ولكن فكرته عن التجسد بدأت وقتئذ نجما  
حياة جديدة ، فكان الفيثاغوريون الجدد يتقنون فيما تنطوى عليه الأعداد  
من أسرار خفية ، ولا ينقطعون يوماً واحداً عن اختبار الضمير الإنساني ،  
ويدعون الله أن ينتقلوا بعد أقصر فترة مستطاعة من التجسد إلى الاتحاد المبارك  
مع الله بعد أن يمروا بالمطهر - إن كان لا بد لهم أن يمروا به (٦٨) . وكانت  
الرواقية تبعد شيئاً فشيئاً عن أن تكون فلسفة الأشراف المفتخرة المستهزئة ،  
وقد وجدت آخر المعبرين عنها وأفصحهم لساناً في عبد من العبيد . وكان  
إيمانها باللهيب الذي سوف يحرق العالم آخر الدهر ، ونبذها كل ملاذ الجسد ،  
واستسلامها في خضوع وذلة إلى إرادة الله الخفية ، كان هذا كله يمهد السبيل  
إلى اللاهوت المسيحي والمبادئ الخلقية المسيحية . وملاك القول أن المزاج  
الشرقي كان وقتئذ يستحوذ على القلعة الأوربية .